

الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation



المربع المظلم: كيف تتلاعب بك رباعية
(الشيطان - الدنيا - الهوى - النفس)؟

(رحلة في غياهب آليات السقوط وبناء مناعة الإيمان)

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان



يعيش الإنسان في حالة صراع مستمر بين قوى داخلية وخارجية تتنازع على توجيه إرادته وقراراته، وهذا الصراع ليس مجرد حالة فلسفية مجردة، إنما حقيقة وجودية يعيشها كل إنسان في لحظات حياته المختلفة، وفهم طبيعة هذا المربع المظلم - النفس والهوى ووسوسة الشيطان والدنيا- يُعدّ المفتاح الأساسي لبناء شخصية متوازنة وحياة مستقيمة. فالنفس الإنسانية في التصور الإسلامي تعدّ كياناً معقّداً يحمل في طبيّاته إمكانيّات الخير والشر معاً، فهي كيان قابل للتشكيل والتوجيه، فالنفس الأمّارة بالسوء تُمثّل المرحلة الأولى من مراحل النمو الروحي، إذ تكون النفس مسيطرة بشهواتها ورغباتها الدنيوية، وهذه المرحلة طبيعية في رحلة الإنسان، لكنها ليست محطة نهائية، والنفس اللوامة تُمثّل مرحلة الوعي والندم، إذ يبدأ الإنسان في مراجعة أفعاله ومحاسبة نفسه، أمّا النفس المطمئنة فهي غاية الرحلة الروحية، إذ تستقرّ النفس في سكونية وطمأنينة اليقين. فتربية النفس تتطلّب منهجية متدرّجة تبدأ بالوعي الذاتي وتنتهي بالتحكّم الواعي في الانفعالات والسلوكيّات، وهذه المنهجية تبدأ **بمرحلة الوعي الذاتي** التي تتضمّن التعرف إلى نقاط القوة والضعف في الشخصية، وفهم الأنماط السلوكيّة المتكررة، والوعي بالمحفزات الداخلية والخارجية التي تؤثر في القرارات. ومن ثمّ **مرحلة المراقبة الذاتية** المرتبطة بالمحاسبة المستمرة للنفس، ومراجعة الأفعال والأفكار بانتظام، وتطوير القدرة على التأمل والتفكير في السلوكيات وعواقبها.

وتليها **مرحلة التدخل الإيجابي** وتشمل وضع إستراتيجيات عملية لتغيير السلوكيات السلبية، وتطوير عادات إيجابية جديدة، والاستعانة بالأدوات الروحية والنفسية للتطوير الذاتي وفهم الذات بشكل عميق.

وبداية هذا الفهم للذات تكمن في فهم حقيقة المربع المظلم الذي يعايشه الإنسان طوال فترة حياته، من خلال إستراتيجيات الإنذار المبكر التي ستشكل خط دفاع أولي للإنسان، فالحياة الروحية للإنسان تشبه ساحة معركة خفية **يقارع فيها النفس والهوى والشيطان والدنيا**، إذ تتعاون هذه القوى لتضليل الإنسان وإبعاده عن طريقه، فهذه "الرابعة المظلمة" تعمل بتآزر لأسر الإنسان في شبكة من الشهوات والانحرافات بقيود لا انفكاك منها، وبما تملكه من آليات تلاعب مخيفة، ومصدر الخوف منها ينبع من كونها لا تدرك من البدايات، لكونها تبنى على التدرج الخبيث، والبدء بصغائر الذنوب، وتغليفلها بأقنعة مخادعة، تزيّن المنكر لصاحبه، وتعمل على تقديم الباطل في صورة الحق، وتمنح المعاصي أغلفة برّاقة، وتسوّغ لقبول المنكرات بحجج واهية كشيوعها واستسهاالها، وصولاً للكبائر.

فالنفس بجانبها الأمار بالسوء، تلك العدو الداخلي، التي تميل بطبعها نحو الراحة والكسل، وتسعى لمقاومة التغيير والنمو الروحي.

والهوى هو المحرك الداخلي الذي يعمل على تحويل الرغبات العابرة إلى ضرورات ملحة، ويبرّر الأخطاء والذنوب بحجج واهية، ويحرّف المفاهيم لخدمة الشهوات، إلاّ أنّه في جوهريه ليس شراً محضاً، بل هو طاقة نفسية يمكن توجيهها نحو الخير أو الشر، فالهوى يمثل الرغبات والشهوات الطبيعية في الإنسان، والتي خلقها الله لحكم عديدة منها استمرار النوع البشري والاستمتاع بطيبات الحياة ضمن الحدود المشروعة.

فالمشكلة ليست في الهوى، إنّما باتباع الهوى دون ضوابط أو حدود، ممّا يحوِّله من طاقة بناءة إلى قوة مدمرة، فالهوى المنضبط يدفع الإنسان نحو الإنجاز والإبداع والاستمتاع المشروع بالحياة، أمّا الهوى المطلق فيهوي بصاحبه في هاهوية الانحراف والظلم وفساد القرارات.

أمّا عن إستراتيجيات التعامل مع الهوى، فتكمن في **التعقّل والتفكير في العواقب**، فقبل اتّخاذ أي قرار مدفوع بالرغبة، من المهم التّوقّف والتفكير في العواقب قصيرة وطويلة المدى، وهذا التّأني يساعد في اتخاذ قرارات أكثر حكمة وأقل اندفاعاً، ومن ثمّ **التربية على تأجيل** الإشباع الفوري للرغبات، ممّا ينعكس بقوة في النجاح في الحياة والقدرة على اتخاذ قرارات أفضل، ويمكن **اللجوء للصوم كأداة تربوية**، فالصوم ليس مجرد عبادة، إنّما هو تدريب عملي على كبح الرغبات والسيطرة على الهوى، ومن خلاله يتعلّم الإنسان أنّ رغباته ليست أوامر لا تُرد، بل يمكن التحكم فيها وتوجيهها، فضلاً عن التوجّه نحو **تحويل الهوى إلى طاقة إيجابية**، فبدلاً من قمع الهوى تماماً، يمكن توجيهه نحو أهداف نبيلة، فالرغبة في التميّز يمكن توجيهها نحو الإبداع في العمل أو خدمة المجتمع، والرغبة في الاستمتاع يمكن توجيهها نحو الأنشطة المشروعة والمفيدة، والرغبة في التملك يمكن توجيهها نحو الكسب الحلال والإنفاق في سبيل الخير.

أمّا **الدنيا** فهي سلاح الإغراء المادي، التي تعمل على تقديم المتع الفورية كبديل للسعادة الحقيقية، وتقوم بتضخيم قيمة الماديات وإضعاف شأن الروحانيات، فتخدع البصر بزخارفها الزائلة.

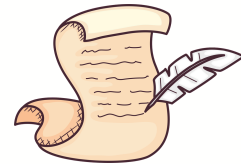
وأمّا **الشيطان** فهو العدو الخفيّ، الذي يقود حرباً نفسية مستمرة منذ لحظة الاستيقاظ وحتى النوم، بما يملكه من وساوس ذكية تتناسب مع شخصية كل فرد، فيقوم باستغلال نقاط الضعف البشرية ببراعة، فوسوسته قوة خارجية تسعى لإفساد الإنسان وإضلاله، وهذه الوسوسة لا تأتي بشكل مباشر وواضح، إنّما تتسلل إلى النفس بطرق خفية ومتدرجة

فالشیطان یستغلّ نقاط الضعف فی الإنسان ویبني علیها إستراتيجیّاته فی الإغواء، فالوسوسة تتخذ أشكالاً متعدّدة، فقد تكون أفكاراً سلبية تتسلّل إلى العقل، أو شکوکاً تثار حول الحقائق الثابتة، أو تزییناً للمعاصي لجعلها تبدو جذّابة ومقبولة، أو إيهاماً بعدم جدوى الأعمال الصالحة، ومن أخطر إستراتيجياته ما یقوم به من تشکیک فی العقيدة من خلال زرع الشک فی وجود الله، والتلاعب بأفکار القدر، وفي العبادات من خلال إثارة الوسوس فی الصلاة، والتثییط عن الطاعات، وفي الأخلاق من خلال تحبيب المعاصي للنفس، و تزیین الشرور والآثام.

ومن منطلق السعي نحو الحماية من الوسوسة، وبناء مناعة للإيمان **فقد وجب اللجوء للتحصين الروحيّ الذكي** بالمحافظة على الأذکار والأوراد اليومية، وقراءة القرآن بانتظام، والمحافظة على الصلوات فی أوقاتها، فهذه الممارسات تخلق حاجزاً روحياً يصعب على الوسوسة اختراقه، **والتفكير النقدي** بتطوير القدرة على تحليل الأفكار والمشاعر التي تطرأ على النفس، والتمییز بین ما هو من النفس وما هو من الوسوسة، وهذا یتطلب تحريماً على الوعي الذاتي والتأمل، والتزام **البيئة الإيجابية** والأصدقاء المناسبین، والبعد عن الأماكن والأشخاص الذين یسهّلون على الشیطان مهمته فی الإغواء، فالبيئة الصالحة تعین على الطاعة، والبيئة الفاسدة تسهل المعصية، **فضلاً عن** ضرورة التسلّح بأدوات للمواجهة كالصبر الذي يعدّ أفضل سلاح لمواجهة الدنيا، والمجاهدة لمقاومة النفس، والاستعاذة للتحصين من الشیطان، والتفکر بوصفه ترياقاً ضد الهوى، والقيام بتصميم خطط عملیّة من قیام بالأعمال الصالحة، ومصاحبة الصالحین، ومراجعة الحسابات اليومية.

وبعد،

فإن الانتصار على هذه الرباعية ليس أمراً مستحيلاً، إلا أنه طريق شاق يحتاج إلى فهم الرباعية المظلمة من النفس والهوى ووسوسة الشيطان والدنيا، وهذا الفهم هو بداية رحلة عملية طويلة نحو التحوّل والارتقاء، رحلة زادها الوعي بوجود هذه الطواغيت بداية، وفهم أساليبها، والتمتع بإرادة قوية والاستعانة بالله، فمن توكل على الله فهو حسبه، واليقين بأن النّجاة تكمن دوماً في اليقظة الدائمة، والمحاسبة المستمرة، واللجوء الدائم إلى مَنْ لا يُخيبُ مَنْ لجأ إليه، ومعرفة أن النجاح في هذه الرحلة لا يُقاس بالكمال المطلق، لكونه أمراً مستحيلاً على البشر تحقيقه، وإنما يُقاس بالتقدّم المستمرّ، والوعي المتزايد، والقدرة المتنامية لاتخاذ قرارات أفضل، ففي كل خطوة إيجابية، مهما كانت صغيرة، هنالك انتصار يستحق الاحتفال والتقدير.



إني بليت بأربع ما سلطوا إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي
إبليس يسلك بي طريق مهالك والنفس تأمرني بكل بلائ
وأرى الهوى يدعو إليه خواطري في ظلمة الشبهات والآراء
وزخارف الدنيا تقول أما ترى حسني وفخر ملابسي وبهائي